(5) الأخلاق والسياسة والدين

إذا أخذنا بعين الاعتبار ميل هيوم لإنكار ضرورة الافتراض بأن لكل حادث سبباً ، فإننا يمكن أن نندهش لاكتشافنا قبوله التام لحقيقتها ، فى الحقيقة – هناك فقرة فى كتابه (رسالة) خلال مناقشته لعاطفتى الخوف والرجاء تحدث فيها عن الاحتمالات المسببة لهما بوصفهما منتمية لنوع أو آخر من نوعين آخذاً فى الاعتبار كون الموضوع بالفعل مؤكداً "ولكن غير مؤكد لحكمنا" ، أو "عندما يكون الموضوع فى ذاته غير مؤكد بالفعل ويتم تحديده عن طريق المصادفة" (T444) . ولكن هذا بُعد نادر عن وجهة نظره المعتادة "أن ما يسميه الساذج مصادفة ما هو إلا سبب خفى مستتر" (T130) – طوال تحليله للعواطف واستكشافه لأسس الأخلاق والسياسة يتبنى الموقف الحتمى Determinist ، للحديث عن هيوم كمؤيد لمذهب الحتمية ، يجب أن نضع نصب أعيننا أن هذا لا ينطوى فى حالته هذه على أى ولاء لحكم الضرورة فى الطبيعة ، أكثر ما يورطه هو أو أى مؤيد للموقف الحتمى أن يفهم ما يتم الحديث عنه هو افتراض أن التقاء وتعاقب أنواع متعددة من الوقائع يظهر انتظاماً تاماً ، بقبول هذا الافتراض ، لم يُنح هيوم الشكوك التى أثارها مدى صلاحية الاستقراء فقط ، لكن شكك أيضاً فى حقيقة أن الانتظامات التى كشفت عنها تجاربنا السابقة بعيدة كل البعد عن الكمال ، فهى لا تعطى كل البيانات المعتمدة ومستوى عموميتها يسمح بمدى غير مفسر بين الشواهد التى تمثلها . لم يلتفت

للنقطة الثانية ولكنه اعترف بالأولى وتخلص منها بمقارنة رأى الساذج الذى يأخذ الأشياء على مظهرها الأول برأى الفيلسوف الذى ينسب أى مظهر لعدم الانتظام إلى التناقض الخفى لأسباب متعارضة (E86-7) ، الاعتراض على هذا المسار هو أنه رد نظرية الحتمية إلى المواضعة Convention ، فهى ستدوم فى كل الظروف لو أجيز لنا أن ندع أى دليل غير ملائم جانباً باللجوء إلى قوى خفية ولمنحناها بعض الاهتمام ، فنحن فى حاجة إلى تحليلها لمجموعة نظريات فعالة حيث نطبقها على مجالات الواقع المختلفة ، فلو فشلت نظرياتنا فيمكن أن نحتفظ بالأمل فى وجود بدائل تكلل بالنجاح ، لكن على الأقل فى أى مرحلة ستكون المسائل المطروحة مبنية على الملاحظة والتجربة .

بالرغم من هذه الاعتبارات لم تخطر ببال هيوم ، إلا أنه ليس هناك سبب يدفع للاعتقاد بأن وجودها غير مرغوب فيها ، بالنسبة للافتراض الذى كان يتمنى هيوم أن يطوره لم يكن بكثير ، أن عمليات الجسد منتظمة بشكل صارم حيث لا يوجد فى هذا الصدد تمييز بين الجسد والعقل ، الطبيعة الإنسانية ثابتة على نحو يماثل الثبات الحاصل فى الأشياء الجامدة ، والأكثر "أن الاقتران المنتظم معترف به كلياً بين البشر ، ولم يكن أبداً موضوع نزاع لا فى الفلسفة ولا فى الحياة العادية" (E88) ، وإذا كنا تفاجأنا من إيجاد هذا القول الفلسفى ، فنحن فى حاجة إلى تذكير أنفسنا بأن الصيغة فى إطار استخدام هيوم لها تشمل العلوم ، وما يحاول الحفاظ عليه هنا هو رسم استنتاجات

من الماضى على تجارب مستقبلية ، كالافتراض بثبات الانتظام أكثر مما اكتشفنا بالفعل حيث لا يقل ظهوره فى العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية ، يقول هيوم : ما الذى سيحل بالتاريخ إن كنا لا نثق بالمصداقية التى يوليها المؤرخ للخبرة التى لدينا عن البشر ؟ ، وكيف ستكون السياسة علماً إذا لم يكن للقوانين وأشكال الحكم تأثير منتظم على المجتمع ؟ ، وأى أساس سيكون للأخلاق إذا لم تكن طباع معينة تتمتع بالقدرة الأكيدة الثابتة على إحداث عواطف معينة ، وإذا لم تكن هذه العواطف ذات تأثير وفاعلية ثابتة على الأفعال ؟ ، وماذا ستكون قيمة دعوانا عندما نُعمل نقدنا على شاعر أو أديب مميز إذ لم يكن بإمكاننا أن نقرر ما إذا كان سلوك الشخصيات ومشاعرها طبيعية أم لا بالنسبة إلى تلك الطباع فى مثل تلك الظروف ؟ يبدو أنه من المستحيل تقريباً أن ننخرط فى علم أو فى أى فعل كان من دون اعتراف بمذهب الضرورة ، وبذلك الاستدلال من الدوافع على الأفعال الإرادية ، ومن الطباع على السلوك (E90) ، والنتيجة التى استخلصها هيوم من هذا (أن لا أحد يؤمن بشكل جدى بحرية الإرادة لو أخذ على أنه يدل ضمنياً أن أفعال الإنسان غير مسببة ، وهو يقر بأن الفرد لديه ميل للمطالبة بهذا النوع من الحرية إذا ما أتى إلى أفعال الفرد ذاته (نحن نحس أن أفعالنا تخضع لإرادتنا فى معظم الحالات ونتخيل أن إرادتنا لا تخضع لأى شئ (E94) ، لأننا لا نعانى من أى شعور بالإكراه إلى حد ما ربما نكون جاهلين بكل الانتظامات التى نطيعها ، حتى عندما

نكتشفها ربما نظل متوهمين بأن فى استطاعتنا التملص من سيطرتها ، ربما أننا حتى نثبت هذا لإرضاء أنفسنا باختيار مسار فعل مختلف فيما فعلناه لتكون الظروف نفسها غير مدركين أن هناك اختلافاً خادعاً فى هذا .

الرغبة النزوية Fantastical فى إظهار أن حريتنا هى الحافز على أفعالنا هنا ، يبدو من الأكيد أنه على الرغم من قدرتنا على أن نتخيل أننا نحس بالحرية داخل ذواتنا ، فإنه بإمكان مشاهد أن يستخلص عادة أفعالنا من دوافعنا Motives وطبعنا وحتى لو لم يمكنه ذلك ، فإنه يستخلص بصورة عامة أن بإمكانه أن يفعل ذلك لو كان يعرف تماماً كل الظروف التى تحيط بوضعنا وطبعنا والنوابض الخفية لقوامنا واستعدادنا (E94) .

ونظراً لأننا نوينا الانحياز للمشاهد فمن الواضح أن هذا الطلب الأخير عود بالسؤال على بدء ، أو بقدر ما فعل ذلك ، يفشل هيوم فى إثبات وجهة نظره ، ولكن مغزى آخر يمكن أن ينبع من هذا الفشل ، وهو انه لم يقو موقف الذين تمنوا الحفاظ على الاقتران المعتاد للإرادة الحرة مع المسئولية ، فمن وجهة نظرهم اتفاقاً مع هيوم أن احتمال الحكم بشكل شامل لأسباب فيزيائية بحته فقد استبعد .

دعنا نفترض أن أفعالنا لا تنبع بأى درجة جديرة بالتسجيل من الانتظام من طباعنا ودوافعنا ، إذن إلى ماذا ننسب انحرافها ؟ ، لا أرى أى سبيل آخر سوى المصادفة ، ولكن لماذا نتحمل مسئولية أفعال حدثت

بالمصادفة ، إضافة إلى أن تلك الأفعال التى نبعت من دوافعنا وطبعنا ربما هى ذاتها يمكن تفسيرها فى نطاق الصفات الموروثة Genetic والمنبهات الفيزيائية والذهنية التى استجبنا لها فى طفولتنا ؟ .

هذا ليس لينفى عنا أى نوع من الحرية ، فهيوم عرفها بأنها "القدرة على الفعل أو عدم الفعل بموجب تحديدات الإرادة (E95). وهذا شئ عام نمتلكه ، ليس هذا فقط ، ولكن هيوم قادر على الجدال بأنها حرية من هذا النوع أكثر منها حرية الإرادة حيث لا نستطيع عرض طلبنا بشكل صحيح بأنها (أساسية بالنسبة للأخلاق) حجته أن (الأفعال موضوعات لشعورنا الأخلاقى فقط بقدر ما تكون أمارات على الطباع الباطنة والانفعالات والعواطف (E99) ، فهى لا تستطيع التسبب فى مدح Praise أو لوم Blame عندما تكون إنتاج قوة خارجية فقط ، وعلى نحو متساوٍ ، لا جدوى من توزيع المدح أو اللوم ، الثواب والعقاب إلا إذا كان لها تأثير على دوافع وطباع الفرد وبالتالى تأثير على أفعاله . وهذا لا يمنعنا من مدح أو لوم سلوك متوفى أو سلوك أشخاص لأسباب أخرى لا تأثير لنا عليهم ، لكن هذا مثال رئيس آخر لقوة العادة ، هناك أنواع معينة من السلوك نجد أنها ممكنة ومفيدة فى كثير من الحالات لتعزز أو تثبط عن طريق المدح أو اللوم ، نحن نقع فى عادة التفاعل بالأسلوب نفسه مع كل سلوك من هذه الأنواع ، ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أنه حتى عندما تكون الأسباب فى المسألة ، موضوع الفحص ، بعيدة عن تناولنا ، فإن تقييمنا لأى منها ربما يظل له تأثير على سلوك

الذين يميلون إلى السير على خطاها ، فى قضية حرية الإرادة أعتقد أن رأى هيوم صائب باستثناء زعمه أن تعريفه للحرية "يتفق عليه جميع البشر" ، أعتقد أن قوله باتفاق عام يكون قد وضع شرطاً ضرورياً للحرية ، ومع ذلك ، أشك إذا كان يعتقد أنه يكفى ، يبدو لى أن ليست أحكامنا الأخلاقية فقط ، ولكن أيضاً مشاعرنا تجاه ذواتنا والأشخاص الآخرين ، كمشاعر الكبرياء والامتنان التى يحكمها مفهوم الجزاء Desert الذى يتطلب أن تكون إرادتنا حرة بمعنى أكثر قوة عما يقره تعريف هيوم ، بشكل مشوش قمنا برهن ذواتنا والآخرين بما يسمى ويوصف أحياناً بقوة الحتم الذاتى ، المشكلة أنه حتى إذا كان هناك شئ رد هذا الوصف ، فيجب ألا نهرب من إشكالية هيوم ، إما أن ممارسة هذه القوة يتلاءم مع نمط سببى أو أنها تحدث بشكل عشوائى ، فى أى من الحالتين ستظهر مُبررة لإسناد المسئولية .

يمكننا تجنب التشوش كما فى مقترحات هيوم بتعديل مفهومنا عن الجزاء والمسئولية حتى يتناسب مع مخطط نفعى بحت ، ولكن إذا كان لدينا مثل هذه الهيمنة على عواطفنا بأن نكون قادرين على الامتثال لمثل هذه السياسة ، وإذا كان وجوب الامتثال حتى لو استطعنا أن يكون مرغوباً فيه تماماً ، هى مسائل مفتوحة للنقاش ، ثمة نقطة مثيرة ، وهى إذا كانت نظرية الحتمية صحيحة وأقر الفرد بوجود خالق قادر على كل شئ Omnipotent ستظهر إشكالية أخرى أمام الذين يتمنون الدفاع عن أن الخالق مجبول على حب الخير ، كما قال هيوم ،

وهى أن الأفعال البشرية إما ألا يمكنها أن تكون شائنة من الناحية الأخلاقية ، على الإطلاق ، لأنها تصدر من السبب المجبول على حب الخير ، وإما أن يكون بها شين فيلزم أن تشمل المعصية نفسها خالقنا طالما اعترف به سبباً وموجداً لها (E100) ، نستطيع الإفلات من هذه الإشكالية عن طريق نبذ مفهوم الذنب تماماً ، قابل للجدل أن على أى حال ينبغى لنا أن نتصرف فى ظل اعتماده على تصور مشوش لحرية الإرادة ، ولكن سرعان ما يتبع الإفلات أو الهروب حجز آخر ، حيث سيعاود ظهور الإشكالية مرة أخرى فى مصطلح الشر حيث العبء أثقل على عاتق الخالق ، لكون أنه ليس كل الشر فى العالم نتيجة أفعال بشرية متعمدة ، وفى هذه الحالة لا مجال للهروب حيث الشر يضم قدراً كبيراً من معاناة الإنسان والحيوان ، ولا يمكن إنكار أن هذه المعاناة تحدث ويمكن أن تخفف فى بعض الحالات بأنها نتجت عن سبب يتصف بالخيرية ، ولكن بعيداً إلى حد ما عن حقيقة أنه ليس بالواضح كيف يمكن أن يحقق هذا شيئاً أكثر من تقليل الشر ومثل هذه الحالات استثنائية ، برفض الاقتراح المناف للعقل بأن هذا هو الأفضل فى كل العوالم الممكنة . سنترك الخاتمة القائلة إذا كان الخالق قادراً على كل شئ ، فهو ليس مجبولاً على حب الخير ، وبشكل مميز ترك هيوم القارئ لاستخلاص هذه الخاتمة مقدماً حجته وراضياً لتقديمه ملاحظة (بأن ندافع عن القرارات المطلقة ونرفض أن يكون مع اللّه فاعل آثم، تلك أمور تبيّن حتى الآن أنها تتخطى كل قدرة للفلسفة (E103) ،

حيث إن أضعف جزء فى حجة هيوم هو افتراضه للحتمية ، فيجدر ملاحظة أن خاتمتها نادراً ما تكون غير صحيحة لو أن الافتراض تم بتمهل ، ولن تكون المكانة الأخلاقية للخالق أكثر سمواً إن أراد نسبة جديرة بالاعتبار من شر العالم وترك المتبقى للمصادفة ، وبعد تعليقه الساخر بأن قضية اشتراك الإله فى الإثم تتجاوز قدرة الفلسفة .

نصح هيوم بأن (يعود الموضوع بالتواضع اللائق إلى مجاله الحقيقى – أى – فحص الحياة العادية (E103) وهذه هى السياسة التى اتبعها هيوم نفسه فى إعطاء تفسيراته الفلسفية فى الأخلاق الإنسانية ، وبالنظر إلى كل تفاصيل فلسفة هيوم الأخلاقية تجدها متقنة ومعقدة ، ولكنها مستمدة من عدد بسيط من المبادئ التى يمكن استنباطها بوضوح ، وهذه المبادئ تحليلية فى جزء منها ونفسية فى جزء آخر – سأذكرها أولاً ثم أناقشها ثم أنظر بعين الاعتبار إلى النتائج التى استخلصها هيوم منها – المبادئ كالآتى : لا تعطى أى اهتمام للترتيب الذى قمت بوضعها فيه .

1 ـ العقل وحده كونه معنى فقط باكتشاف الصواب والخطأ (لا يمكنه أن يكون أبداً الحافز لأى فعل من أفعال الإرادة (T413) ، ومن هذا المبدأ استمد هيوم قوله المأثور عنه (العقل لا يكون إلا عبداً للعواطف ، ولا يستطيع أبداً التظاهر بأى وظيفة أخرى سوى خدمة وطاعة العواطف) (E415) .

2 ـ العواطف التى هى دافعنا يمكن أن تكون مباشرة أو غير مباشرة هادئة أو متقدة - العواطف المباشرة مثل الحزن والسرور ، الخوف والرجاء تنشأ من غريزة طبيعية أو من رغبتنا فى الخير الذى ، هنا يعادل اللذة أو النفور من الشر والذى – هنا – يعادل الألم أما العواطف غير المباشرة مثل الكبرياء Pride والضعة Humility المحبة أو الكراهية تنشأ من مزيج من الدوافع الأولية مع عوامل أخرى – هذا الفرق مستقل عن الفرق بين الهدوء والاتقاد ، لأن الحافز يمكن أن يكون عنيفاً ، حيث الإناسى فى أحوال كثيرة تتعمد التصرف ضد منافعهم ، ودائماً لا يتأثرون برؤيتهم لإمكانية الخير العظيمة (T418) .

3 ـ التعاطف Sympathy مع المخلوقات الأخرى هو غريزة طبيعية وقوتها فى هذا ، على الرغم من أنه (نادراً أن تتقابل مع شخص يحب أى شخص آخر أكثر من نفسه) ، إلا أنه يعادل "ندرة الالتقاء بشخص حيث كل العواطف الرقيقة مجمعة معا لا تكون أرجح من الأنانية (T487)، هذه الغريزة الطبيعية فى التعاطف أو النزعة إلى عمل الخير تلعب دوراً كبيراً فى تكوين اتجاهاتنا الأخلاقية والسياسية .

4 ـ طالما أن الأخلاق تؤثر على أفعالنا وعواطفنا – لذا – لا يمكن أن تكون مستمدة من العقل (T457) ، وبالتالى "فإن القواعد الأخلاقية ليست خلاصات عقولنا" .

5 ـ الأحكام الأخلاقية ليست وصفاً لمسائل الواقع (انظر لأى فعل غير أخلاقى : القتل المتعمد Willful Murder ، على سبيل المثال ، أفحصه بشكل كامل من كل النواحى ، وانظر إن استطعت أن تجد مسألة من مسائل الواقع أو وجوداً فعلياً يمكن أن تسميه رذيلة : إنك بأى طريقة تتناوله بها ، لن تجد سوى عواطف ودوافع وإرادات وأفكار محددة ، ولا وجود لمسألة أخرى من مسائل الواقع فى هذه الحالة (T468) ، وعلى نحو مماثل فبدلا من الروابط العادية للقضايا (يكون) is (ولا يكون) is not فجأة لا أقابل أى قضية لا تكون مرتبطة بما ينبغى ought أو بما لا ينبغى (T469) . ولكونى منتبه (فإنه أمر غير مشروع أن نستنتج هذه العلاقة الجديدة من علاقات أخرى مختلفة عنها تماماً) .

6 ــ يمكن مقارنة الفضيلة والرزيلة بالأصوات وبالألوان وبالحرارة وبالبرودة التى لا تكون وفقاً للفلسفة الحديثة كيفيات فى الموضوعات ولكن إدراكات فى العقل (T469) ، وبالتالى فحينما تصف سلوكاً أو فعلاً بأنه رذيلة ، فأنت لا تعنى شيئاً سوى أنه من تأليف طبيعتك ، يكون لديك شعور أو عاطفة اللوم من تأملها" – أنه من الجدير بالملاحظة أن هيوم هنا أو فى أى مكان آخر فى كتاباته فى الأخلاق قد أخذ بوجهه نظر لوك فى الكيفيات الثانوية بالرغم من رفضه السابق لها عندما كتب مؤلفه (فى الفهم) .

7 ـ بالرغم من التحدث عن أفعال الفضيلة أو الرذيلة ، فإنها تستمد ميزتها أو نقيصتها من دوافع لفعل الفضيلة أو الرذيلة وهى فقط كعلامات لهذه الدوافع أو طبع الشخص سبباً للتقييم الأخلاقى .

8 ـ شعور الموافقة أو الاستحسان approbation الذى يثار بواسطة فعل عقلى أو كيفية نطلق عليه فضيلة يكون هو ذاته لذٌ ، أما شعور عدم الموافقة أو الاستنكار المرتبط بفعل الرذيلة فهو غير لذٌ (E289) ، فنحن نستطيع أن نأخذ الفضيلة على أنها قوة تنتج عاطفتى الحب أو الاعتداد بالنفس ، والرذيلة على أنها (قوة تنتج الضعة والكراهية) .(T575)

9 ـ ما يثير استحساننا أو استنكارنا هو تقييم للكيفيات والدوافع كمنتجة لرجحان اللذة أو الألم ، على التوالى ، هذه التقييمات أيضاً يمكن اعتبارها أحكام منفعة .

10 ـ لا يوجد فعل يمكن أن يكون فاضلاً أو جيداً أخلاقياً إلا إذا كان هناك بعض الدوافع فى الطبيعة الإنسانية تنتجه ، مميزاً عن الإحساس بمدى كونه أخلاقى (T479) .

11 ـ روح العدالة التى يعتمد عليها كل من الالتزام السياسى والأخلاقى لم تستمد من أى انعكاسات لانطباعات طبيعية ، ولكن تستمد من انطباعات بفضل المهارة والمواضعات البشرية (T496) .

دعونا نبدأ بفحص المبادئ السيكولوجية ، ربما يكون هناك بعض الشك ما إن كانت الحالات التى لا ترجح فيها مشاعر المودة على

مشاعر الأنانية تعد نادرة جداً كما افترض هيوم ، ولكنى لا أجد سبباً مقنعاً للشك فى أننا نمتلك غريزة طبيعية من التعاطف أو الأريحية ، جرت محاولات لجعل التعاطف تحويراً لحب الذات ولكنها من وجهة نظرى شرود وانحراف ، حيث أنه لا سبب لافتراض أن كل فعل له أساس من الأنانية ، فمن الأبسط والأكثر واقعية فى هذا السياق أن نقبل ما أسماه هيوم "المظهر الواضح للأشياء" (E298) . دون الدخول فى دراسة مدى دقة تمييزات هيوم بين المباشر وغير المباشر أو الهادئ والمتقد من العواطف ، أظن أن النقاط التالية سوف تكون مقبولة ، أولاً : أنه ليس كل فعل مقصود له دافع ، بمعنى أنه صدر عن رغبة فى جلب شئ جيد للشخص نفسه أو للآخرين أو للمجتمع ككل ، وثانياً : أنه حتى لو كانت أفعالنا لها دوافع بهذه الطريقة فيمكن ألا تكون متطابقة مع مبادئ المنفعة ونادراً ما تتطابق مع مبادئ الأنانية البحتة المعترف بها بالفعل ولا تمثل ببساطة الإيثار – التعاطف يختلف فى الدرجة وقوته تعتمد على عديد من العلاقات الأخرى حيث يمكن أن يقف الفرد على دافعه ببساطة بأنه ليس متناسباً مع تقييم وتقدير الفرد لقيمه وحاجة الدافع ، وعليه يمكن أن يختار الفرد منح شئ مفيد ونافع لأحد أفراد عائلته أو لمحب أو لصديق ، ليس على حساب منفعة الفرد نفسه فقط ولكن على ما يعتقد الفرد أنه يعد منفعة أعظم لكثير من الناس .

فى الحالات التى تكون أفعال الفرد فيها غير مقصودة مثل مشاعر الشفقة أو الإحراج أو الغضب يمكن أن تقودنا إلى التصرف بطريقة ليس فى مصلحة أحد على الإطلاق .

يمكن أن تجادل أن الأفعال التى تحدث من الشفقة أو الغضب غير مقصودة حيث تطلب رغبة فى فعل خير أو ضرر للأشخاص المعينين، والإجابة ، هى أن هذه الرغبة نشأت من العواطف وليست من الطريقة الأخرى ، لا نريدها أن تكون الحالة كما ألمح هيوم بأن الأفعال التى يتغاضى الفرد عن نتائجها تنشأ – فقط – من العواطف المتقدة ، وهى عادة نتيجة قصور ذاتى ، ببساطة لا يمكن للفرد أن ينزعج من إدراكه خيارات أحد سواء كان الاختيار يتضمن تسبباً فى حدوث اللذة أو الخروج من موقف يجده مؤلماً ، ومرة أخرى ، يمكن الجدال بان عدم التقدير الذى يوليه الفرد لصنع محاولة ، حُكم بأنها تفوق التقدير الذى يتوقعه الفرد من إنتاج حصيلتها ، ولكن لو لم يجعل هذا التفسير مبتذلاً بالسماح للحكم بأن يكون غير واع ومن ثم تعديل القصور الذاتى Inertia بها ، أعتقد ببساطة أنها غير صحيحة بالنسبة للحقائق ، القول بأن أفعالنا ذات الدوافع لا تتطابق بشكل عام مع المبادئ النفعية ليس إنكاراً لأنها يجب أن تتطابق ، إنها مازالت قادرة على الحفاظ على أنه لا يمكن إلا عندما تفعل ولذلك تعتبرها فاضلة .

حقيقة أن هناك العائق السيكولوجى الأبعد وهو أننا ليس فقط لا نفعل ما نريد دائماً ولكن حتى عندما نفعل ما نريد تكون أهدافنا

عادة أكثر تحديداً ثم إنتاج حالة من اللذة أو إبطال حالة من الألم ، بالرغم من انه للمرة الثانية هنا يمكن أن تعد فقط عندما تمتلك أهدافاً فإن أفعالنا تعد فاضلة ، أعتقد أنه مع ذلك سيكون خطأ أن ننسب هذا الرأى لهيوم – فقد قال هيوم – على نحو لا يمكن إنكاره ، "إن كل كيفية من كيفيات العقل تمنح لذة وذلك بمجرد تقرير يسمى فعلاً فاضلاً وكل كيفية تسبب ألماً يسمى فعلاً رذيلاً (T591) . إضافة إلى أن (هذه اللذة وهذا الألم ربما ينبع من أربعة مصادر مختلفة) ، حيث أننا نجنى لذة من رؤية طبع مناسب لإفادة الآخرين بشكل طبيعى أو لإفادة الشخص ذاته أو من حيث كونه مقبولاً للآخرين أو للشخص ذاته) ، ومع ذلك هناك نقطتان تقللان من قوة هذا القول ، الأولى : هى أن هيوم لا يعتقد أن اللذة التى نحصل عليها من إقرار كيفية أخلاقية تكون دائماً من النوع نفسه ؛ فهى تختلف تبعاً لطبيعة الكيفية فى المسألة ، موضوع الفحص ، النقطة الأخرى : هى أنه عندما يتحدث عن طبع مناسب لإفادة الآخرين لم يساوى هذه المنفعة بالحد الأقصى للذة ، يمكن أن تكمن فى إحداث إشباع لرغبات الناس ، ضمن هذا السياق أيضاً ، فإنه جدير بالملاحظة أن هيوم لا يُعتبر رائداً من رواد النفعية كبنتام Bentham ومل Mill ، نرى أنه يقرن فضيلة العدالة بالمنفعة العامة وفقاً لمبدأ الاتفاق أو المواضعة ، ولكنه بلا سبب جعلها صفة عامة لحوافز استحساننا الأخلاقى التى تعزز أى شئ لترتيب السعادة لأكبر عدد من الأفراد . ومن المرفوض بالنسبة لهيوم أنه لا يوجد شئ كالشعور

الأخلاقى مماثل للأحاسيس الجسدية أو الشعور الخاص بالاستحسان الأخلاقى الذى يُوقظ من رؤية كيفيات وطباع فاضلة بشكل ثابت ، والإجابة عن هذا هى أنه لم يقر بقول أن هذا موجود ، وكما نرى تحدث عن شعورنا باللوم عندما نتأمل طبعاً نعده رذيلاً – ولكن الفكرة التى أعتد بها أنه عند إطلاق صفة غير أخلاقى على طبع ما ، فإننا لا نميزه بخاصية حقيقية متفردة ، ولكن نصف رد فعلنا تجاه الخواص التى لديه . رد الفعل هذا يجب أن يكون مُعادِ ، ولكن ليس فى حاجة لأخذ نفس الشكل بالضبط – فى كل حالة – نحن لدينا شعور بالاشمئزاز أو سخط أخلاقى ، ولكن لسنا فى حاجة لوجوده فى كل موقف تنديد أخلاقى ، فهناك تنوع – على نطاق واسع – فى الحالات والأمزجة والأفعال ، ليست جميعها ملئ بالعواطف التى تتوقف عليها اتجاهاتنا بالموافقة أو الرفض .

أعتقد أيضاً أن بعض النقاد قد ضلوا الطريق بسبب استخدام هيوم لكلمة (معنى) . عندما تحدث بأننا لا نعنى شيئاً باستخدام توكيدات أخلاقية سوى التأمل فى الأفعال أو الطباع التى طبقناها وتسببت فى تكوين مشاعر مفضلة أو عدائية لدينا ، ولا أعتقد أن هيوم يقدم فرضاً بأن العبارة التى تأخذ الصيغة أن (×) جيدة ترادف عبارة (لدى شعور بالموافقة الأخلاقية ينبنى على تأمل (×) من الناحية المنطقية) أو لبعض عبارات أخرى كهذه تأْمُل (×) يثير شعوراً بالموافقة لدى معظم الأفراد العاديين أو (لدى معظم أفراد هذا المجتمع) ، والتطبيقات نفسها

على عبارات عن صحة الأفعال أو الالتزامات فى أدائها ، لا أعتقد أن هيوم لديه رؤية بأن إصدار هذه العبارات من هذه الأنواع تؤكد شيئاً عن أنفسنا خفية أو عن منتقدين حقيقيين أو محتملين آخرين.

هناك حقاً معنى لما قدمه من تحليل يتعلق بأحكامنا الأخلاقية ، ولكن التحليل لا يُقصد به أن يزودنا بطريقة لترجمة العبارات التى تعبر عنها ، إنه يكمن أكثر فى حساب الظروف التى تسببت فى توظيفنا لهذه التوكيدات الأخلاقية والأهداف التى تخدمها بتوظيفها ، علاوة على ذلك ، إذا أصررنا على استخلاص صياغة ثانية من آراء هيوم ، فيجب علينا القرب من الغاية بالإيمان بأن هيوم لديه نظرية (عاطفية حديثة) ، حيث تخدم فى التعبير عن عواطفنا الأخلاقية أكثر من النظرية التى هى عبارات عن الحقيقة بشان الفرد نفسه أو الحالة العقلية لأفراد آخرين ، حتى أنه ليس بالواضح أن وصف هيوم بأنه ذى نزعة ذاتية Subjectivist فى الأخلاق صحيح ، إلا إذا استخدمنا مصطلح ذاتى بالطريقة التى أقر صحتها لوك حيث أعطى لمضمون مصطلح ذاتى مجموعة من الكيفيات كاللون ، ولكن هل ليست واحدة من مبادئ هيوم أن الأحكام الأخلاقية ليست أوصافاً لأمور الواقع ؟ ، هذا صحيح ، ولكن ما تعنيه هو أنها تفتقر لهذا النوع من المحتوى الواقعى الذى يوجد فى دوافع الفرد أو فى مجموع ما يقوم به بالفعل ، ومن وجهة نظر أخرى ، هى تبدو كأمر من أمور الواقع حيث الدافع أو الطبع من هذا النوع لديه قدرة على استدعاء استجابات معينة لدى متأمله ، حيث أن

أمور الواقع تولد استجابات ؛ ولا يوجد أى دليل فى النصوص بأن هيوم أراد أن ينكر هذا – ما أراد أن ينفيه بالفعل أن التوكيدات الأخلاقية تمثل كما قال لوك ما يسمى بالكيفيات الأولية ، أو بكلمات أخرى ، إنها تمثل صفات جوهرية للدوافع أو الطباع أو الأفعال التى تطبقها .

فى هذا هو على صواب تماماً ، بالنظر إلى مثاله الخاص (بالقتل المتعمد) ، فسوء الفعل ليس بصفة إضافية فيه ، صافاً حقائق بأن القاتل كان لديه الدوافع كذا وكذا ، أو انه قتل الضحية Victim بهذه الطريقة أو تلك ، ولا واحدة منها تبدو ظاهرة كنوع من الغشاوة حيث يغشو الاقتران فى حدوث مثل هذه الوقائع – تصريحى – أنه فعل خاطئ – ربما يحمل مضمون وصفى ، إذا ترجمت كافتراض قبولى لبعض الأخلاق المسيطرة حيث أستطيع تأكيد أنه فعل اعتداء ، لكنه ليس مقيداً بأى افتراضات ، لو أن عواطفى الأخلاقية كانت على خلاف مع الأخلاق المنتشرة فى مجتمعى ، أو أى مجتمع آخر ، لا يمكن أن تضعف ، على سبيل المثال ، ربما أكون مقتنعاً على مستويات فلسفية أن مخالفى القانون يجب أن يعدوا كهؤلاء الذين يعانون مرضاً ما ، ربما أعلق أهمية على الحفاظ على الاستقرار فى اتجاهاتى الأخلاقية ، وربما أقتنع أن هذه الحالة لا تختلف عن حالات أخرى اتخذت فيها وجهة نظر مختلفة ، ربما يكون لدى سبب جعلنى أعتقد أن وجهة نظرى فى هذه الحالة قد أغشتها صفات معاكسة لخبرتى وطبعى ، وبالتالى قررت أن حكمى الأخلاقى الأساسى كان به سوء فهم ، وأنا قلت (سوء فهم)

ولم أقل (خطأ) ، لأنى أعتقد أنه مُساعد على تحديد قيمة صادقة فقط للأحكام الأخلاقية التى تحمل افتراضاً لمجموعة مبادئ ، لهذا أصبحت مسألة واقعية حتى لو اتفق الحكم مع قواعد القياس التى جهزتها مجموعة المبادئ ، من الواضح أن هذا لا يتضمن أن أى مجموعة مبادئ تكون مقدسة إلى أبعد حد ولا أن كل الأحكام الأخلاقية تكون مقبولة بشكل متساو .

جدال هيوم أن (يجب) ought لا تصح بالضرورة من (يكون) IS ، إنه أمر غير مشروع ، أيضاً أفضل مثال معاكس هو المتعلق بالوعد – نوقش وعد حقيقى صادق فى ظل ظروف محددة حيث قال رجل ما (أعد بأن أفعل كذا) ، فمن المنطقى أن تُتبع هذه العبارة بأشياء أخرى مساوية لها ، حيث ينبغى أن يفعل كذا ، ولكن هذه مغالطة Fallacy – إذا بدا الاعتراض مقنعاً ، فهذا لأنه وضع داخل مناخ أخلاقى وحيث الاستعداد المسبق والتعرض للالتزام الأخلاقى من خلال القول فى ظل ظروف مناسبة وبتسلسل معين من الكلمات ، لكن إذا كنا نتعامل مع مسألة تُستلزم منطقياً فوجود مثل هذا المناخ لا يمكن أن يفرض بشكل شرعى ، يجب أن يعد كوعد إضافى للتأثير بأن المتحدث ينتمى لمجتمع بحيث تعد مبادئ التفوه بمثل هذه الكلمات فى بعض الظروف مقبولة حتى يتولى القيام بتعهد أخلاقى.

مرة أخرى هذا يعد وعد حقيقى ، ولكن عند إقرانه بالآخر ، لا يستلزم النتيجة المرجوة ، نحن مازلنا فى حاجة للوعد الأخلاقى حيث

يجب أن يكون الإخلاص . ثمة اعتراض بسيط على نظرية هيوم هو أنها تطبق بالطريقة نفسها سواء على الهبات أو على العوائق الطبيعية مثل الهيئة الجيدة أو السيئة ، الذكاء أو الغباء ، الاجتماعية أو الانطواء ، كما تطبق على ما يعد بشكل معتاد فضيلة أو رذيلة مثل الشجاعة أو الجبن ، الأمانة أو التقلب ، السخاء أو البخل ، فى تذييل مؤلفه (بحث) يسلم هيوم بأمر حقيقى ثم ينكره متعللاً بأنه غير مهم ، محتكماً فى هذه النقطة بآراء شيشرون الذى اتخذه نموذجاً بشكل صريح واحتكم فيها أيضاً بأرسطو الذى رتب الشجاعة ، الاعتدال ، السمو ، التواضع ، الحكمة بين الفضائل مثلها مثل العدالة والصداقة (E 319) . فشل هذا فى تفسير الاختلاف الذى نصنعه عادة بالرغم من شكى فى أن هيوم على صواب فى ادعائه بأنه لا يعتمد على أية مبادئ ثابتة ، من المحتمل أن نميل لحجز ألقاب أخلاقية لهذه الكيفيات الودودة أو غير الودودة التى تتطلب تهذيباً أكثر حتى تصبح مألوفة ، أو الاعتماد بشكل أكثر على حضور أو غياب الانضباط الذاتى Self-displine سيظل هذا يسمح للسلوكيات الجيدة بالانضمام إلى الفضائل ، ولكننى لا أجد هذا غير مقبول .

بالنسبة لأى فرد درس كانط الذى أقر بأن أى فعل هو أخلاقى – فقط – إذا كان نابعاً من الإحساس بالواجب ، وربما يعد صدمة قول هيوم أن الفعل يجب أن ينشأ من دافع آخر غير الشعور بأنه أخلاقى حتى يكون جيداً أخلاقياً ، هيوم لا ينكر إمكانية التصرف بدافع الشعور

بالواجب ، ولكن ما ينكره أن هذا فى ذاته يؤكد أى ميزة فى الفعل ، فشخص ما فى وضع بائس ربما يصبح خجولاً من هذا الوضع ، وعليه ، فهو يجبر نفسه على التصرف بسخاء فى وقت يمكن أو لا يمكن أن يتغلب على كرهه الأولى لأداء مثل هذه التصرفات أو الأفعال ، بالرغم من أنه ليس بالضرورة أن يتغلب على هذا حتى تعد أفعاله جيدة أخلاقياً فصلاحيتها تعتمد على عملها وفقاً للممارسة المعتادة للسخاء أو الكرم ، وطالما أن هذا متوفر فلا وجود لأى فرق أخلاقى سواء كان صاحب الفعل لديه مشاعر السخاء أو الكرم ، أو أنه يعتقد أن بتصرفه بهذا الشكل من السخاء والذى يسير ضد رغباته هو أكثر فائدة بالنسبة له أو أنه يتصرف ضد رغباته لأنه يعتقد أن هذا السخاء هو الذى يجب ممارسته ، لذلك يجب ألا يخدعنا قول هيوم بأن الأفعال تكون جيدة أخلاقياً لكونها علامات على دوافع جيدة أو طباع جيدة ، وهذا لا يعنى أنه يعتبر أن الطباع أو الدوافع تكون جيدة بذاتها ، فهى تدين بهذا الصلاح فقط لحقيقة أنها عادة تكون باعثاً للأفعال المقبولة أخلاقياً – إنها العواقب – هى التى توقظ الانسجام والدوافع دُفعت للمقدمة فقط لأنها يمكن أن تعد معتادة على إنتاج أفعال مفيدة ، أن يكون لديك شعور بالواجب كدافع أولى للتصرف بشكل جيد ، هو انتقاص من قدر إلى حد ما ، حيث إن هذا يقترح أن الفرد ناقص فى الغريزة الطبيعية المتعلقة بالأريحية .

فى الحقيقة إن الخلاف بين هيوم وكانط فى هذه المسألة اتسع ، حيث إن قاعدة كانط فى ربط الأخلاق بالشعور بالواجب هو أن الفعل يمكن أن يكون قيماً أخلاقياً فقط إذا كان يتم بحرية ، وأن هذا يكون فقط عندما ينبع من الشعور بالواجب حيث الأفعال حرة فى الأسلوب الأساسى – ليس من الواضح أى أسلوب من الحرية يفترض أن يكون ولكن فى أى حالة يبدو أنه لا ضمانات لتحديد فرق على هذا الأساس ما بين الشعور بالواجب وبين أى دافع آخر ، بالرغم من أن مبدأ أن السبب لا يمكن أن يكون وحده الدافع لأى فعل ما ، قد يبدو مبدأ سيكولوجياً إلا أن هيوم قد فنده بنهج جعلت منه مبدأً تحليلياً ، نتيجة واضحة المعالم لقصره ما يعده سبباً لرسم استنتاجات وتخمينات للصدق أو الكذب وافتراضه السيمناطيقى Semantic بأن الدوافع الفعالة لا يمكن تصنيفها كصحيح وخاطئ .

العقل يتحكم بالمشاعر بقدر ما يمكن استخدامه لكشف أن المشاعر قائمة على حكم خاطئ ، على سبيل المثال ، عند إثبات عدم وجود مصدر خوف الفرد ، أو أن الوسائل المختارة لإنجاز هدف ما غير كفء لهذا الغرض ، شاهد ثالث : فشل هيوم فى ملاحظته ، هو أن العقل يظهر لنا أن تحقيق هدف مرغوب فيه يمكن أن يتسبب فى إحداث شئ ما نرغب فى تجنبه بدرجة أكبر ، العبارة الدراماتيكية المثيرة أن العقل ، وينبغى فقط أن يكون خادماً للعواطف تعادل فقط بالنسبة لهيوم الحقيقة الواضحة بذاتها أو البديهية بأن العقل يدخل مجال

الفعل فقط عندما يكون لدينا دافع يوجهنا لهدف ما – عبارة (ينبغى فقط أن يكون) مجرد تأنق لفظى حيث إن اختيار الغايات يعتبر خارج مجال العقل ، تماماً كزعم هيوم المريع (مناف للعقل أن أفضل تدمير العالم ككل على خدش أصبعى) أو (أن أختار هلاكى بشكل تام حتى أمنع أقل قدر من عدم الطمأنينة يعانى منها شخص هندى أو شخص لا أعرفه إطلاقا) أو (أن أفضل خيرى المعروف بأنه قليل القيمة والتأثير عن عظيم القيمة والتأثير (T416) ، ليس إلا نتيجة لافتراض نادر مثير للجدل بأن تفضيلات الفرد حتى إذا كانت شاذة ليست فى ذاتها حوامل لقيم حقيقية ولا تحتاج لأن تكون نتيجة لأى استنتاجات خاطئة .

الافتراض الذى يدعم أن الأخلاق لا يمكن أن تنبع من العقل ، حيث أنها تؤثر على أفعالنا ووجداناتنا هى على الجانب الآخر ، غير صحيحة ، حتى فى عرض هيوم نفسه بأن أفعالنا ووجداناتنا ربما تتأثر بصدق أو كذب أحكامنا أو دقة استنتاجتنا ، إنها فقط دوافعنا ، عندما لا تعد كوسائل لأهداف أبعد ، تكون غير مشكوك فيها بالنسبة لهذا التأثير ، ومع ذلك فالاستنتاج بأن "قواعد الأخلاق ليست خلاصات عقلنا يعد جيداً بشكل مستقل فى مقابل ما يزعم أن قواعد الأخلاق لا تأتى دون عمل علاقات الأفكار Relations of ideas .

الاعتراض الأساسى هو أن لدينا بالفعل مفهوماً لعقلانية Rationality الغايات مثلها مثل الوسائل ، تجنبه هيوم باقتراح أننا

أخطأنا فى فهم الأحاسيس الهادئة بسبب "قرارات العقل" . ولكنها ليست بالإجابة المشبعة ، صحيح أننا نصف الشخص الذى يندفع فى مجموعة من الأفعال بلا تفكير فى العواقب بأنه يتصرف بلا عقلانية ، ولكننا أيضاً نعتبر بعض النهايات مثل التى تحدث فى أمثلة هيوم غير عقلانية فى ذاتها ، أعتقد أن الذى نعنيه هنا أنها اختيارات لا يمكن أن يتخذها أى شخص عاقل ، ظهر هنا خطر الدور واضح حيث أن اختياره للنهايات يدخل فى مفهومنا لما يعده الشخص العاقل طريقة ممكنة للهروب هى اعتبار الشخص الذى يختار عادة نهايات من نوع محدد يثير انطباع بالبلّه لدى المشاهد العادى ، ومن ثم يمكن أن تُعرف اللاعقلانية فى النهايات والغايات بمصطلحات سلوك مثل هذا الشخص والعقلانية عكس ذلك .

هنا يبقى سؤال هل الشعور بالعدالة التى كشف هيوم أنها مصدر التزاماتنا – طبيعى أم مكتسب – والقاعدة التى بنى عليها قوله أنه مكتسب هو أنه لا وجود لدوافع طبيعية تمد بها مع القليل جداً من الاستثناءات ، ليس لدى الناس أى من هذه المشاعر كحب البشر ومشاعرهم الطبيعية فى الأريحية تجاه عدد محدود من الناس تخدم الظلم ، حيث يمكن أن يقودهم هذا إلى تفضيل منفعة هؤلاء على المصلحة أو المنفعة العامة ، وبالرغم من أن تفسير هيوم للشعور بالعدالة يرتبط بشكل غير مباشر بالمنفعة الذاتية ، إلا أنه لا يمكن ينبع مباشرة من أنانية الفرد ، فتفسير هيوم يتم كالآتى : بسبب ضعف الإنسان

الجسدى استطاع البقاء والنجاح فقط كفرد فى جماعة ، حتى إن كانت هذه الجماعة صغيرة فى البدء كالأسرة .

عندما تتمازج الجماعات تذهب كل منها بالأخرى (هناك ثلاثة أنواع من الخيرات التى نمتلكها الرضا الداخلى لعقولنا ، المميزات الخارجية لأجسادنا والتمتع بالممتلكات التى اكتسبناها بالكد والمثابرة والحظ السعيد (T487) – النوع الثالث من هذه الخيرات يعد فى خطر رئيس ، من جهة بسبب جشع الفرد والنطاق المحدود لأريحيته ، ومن الجهة الأخرى بسبب شح الطبيعة ، فإذا عاش البشر دائماً فى بيئة بهذه الوفرة حيث كل شهواتهم المادية وحتى الرفاهية أيا كان مداها يمكن إشباعها بسهولة ، (لا يمكن أبداً ولو مرة واحدة أن نحلم بفضيلة العدل اليقظة (E184) ، الجماعات المختلفة تتنافس فيما بينها للحصول على كم من الخيرات النادرة نسبياً ، ولو أن هذه المنافسة غير مقيدة ، لن يستطيع أى فرد الاستمتاع بما اكتسبه باجتهاده وحظه السعيد فى سلام (T489) ، لتجنب مثل هذه الكارثة ، أقر الناس مجموعة من الاتفاقات التى تشرع حقوق الملكية ، وأقروا أيضاً الشروط التى تنتقل بمقتضاها الملكية من فرد إلى آخر بشكل شرعى ، وهذه الاتفاقات ليست وعوداً ، ولكن على العكس ، الوعود نفسها هى التى تقوم على اتفاق وغرضها هو توفير الأمان للفرد تجاه أى تصرف مستقبلى لفرد آخر ، (سلام وأمان المجتمع البشرى ككل) (T526) ، يعتمد على ثلاثة قوانين هى: قانون ثبات الملكية ، وقانون تحولها بشرط القبول

وتنفيذ الوعود ، إنها مجرد مسألة مصلحة ذاتية ، الفضائل الأخلاقية تنشأ طبيعياً أو بالاكتساب ، طبيعياً لأننا نتعاطف مع ضحايا الظلم إما من خلال مشاعرنا تجاههم أو بتخيل أنفسنا فى محلهم ، أو بالاكتساب، لأن من يعلمنا ويحكمنا يرى أن من عمله أن يدربنا على تطبيق صفات مدحية Eulogistic للانسجام مع مبادئ العدالة وصفات إزدرائية لخرقها وبذلك تثير وتشجع العواطف الأخلاقية المرتبطة باستخدام هذه الصفات .

تبرير هذه القوانين هو أن التقيد بها يؤدى إلى تحقيق المصلحة العامة، حتى إذا كان هذا صحيح فى الحالات العامة فقط ، فقد يكون خطأ فى بعض الحالات الخاصة ، والمثال الذى أعطاه هيوم هو أن شخصاً لديه شعور بالأريحية أعاد ثروة هائلة لبخيل أو متعصب مثير للفتن ، الرجل تصرف بعدل ويستحق الثناء ، ولكن العامة فى حالة معاناة (T497) ، حتى أن هيوم أقر فى اتفاق مع كثير من النفعيين الحاليين ، أننا يجب علينا الالتزام بالقاعدة العامة ، ولم يقدم أى اعتراض على هذا سوى قوله "من المستحيل فصل الخير عن الشر – الملكية يجب أن تكون مستقرة وثابتة بقواعد عامة ، وبالرغم من معاناة العامة فى هذا المثال ، إلا أن هذا الشر الخاطف يُعوض وبوفرة عن طريق القضاء الراسخ والسلام والنظام الذى يتمتع بهم المجتمع (T497) ، ولكن لماذا يجب أن يعانى العامة أساساً ؟ ، يبدو فقط ، أن هذا لأن استثناءات التسامح تضعف من قدر القاعدة الأساسية وتكون النتيجة أن

أضرار الاستثناءات تفوق منافعها . ولكن حتى إذا قبلنا بهذا كسبب فهو لا يغطى الحالات التى لا وجود لاحتمال جدى بأن اختيار الفعل الذى يسير عكس القاعدة سيصبح معروفاً بوجه عام ، فلماذا يجب علينا التقيد بقاعدة عندما يكون بعدنا عنها سيحقق الغرض منها أكثر من إتباعها ؟ ، لا أعتقد أن هؤلاء المؤيدين لما يسمى بالمبدأ النفعى لديهم إجابة مشبعة على هذا السؤال؟ - اعتراض آخر على مفهوم هيوم للعدالة هى أنها ذات علاقة وثيقة بقاعدة الملكية ، على سبيل المثال ، الفقرة الوحيدة التى تتعلق بقيمة المساواة هو أننا مرتبطون بتطبيق القواعد المنصوصة فى اتفاقاتنا بشكل متساو ، وإذا وجد خلل فيمكن علاجه بسهولة حيث إن الاتفاقات يمكن أن تعدل دائماً لتناسب أى مستوى من مصالحهم ويمكن إقناع أفراد المجتمع بتقبلها – بالرغم من أن العدالة ضرورية لحفظ المجتمع ، فالحكومة فى رأى هيوم ليست ضرورية ، فالمجتمع البدائى غير المتحضر يستطيع البقاء والعيش بدونها – فقط – فى حالة الحرب تكون ناجحة حتى تنظم الجزء الخاص بالسلب والنهب ومن ثم يبدو المحارب كوسيط arbiter مدنى لهذا السبب من وجهة نظر هيوم "كل الحكومات ملكية Monarchical فى البداية) فى المجتمعات الأكثر تمدناً ، الحكومة تكون ضرورية ، لأن البشر طبيعياً تضحى بأهدافها بعيدة الأمد من أجل قصيرة الأمد ، ومن مصلحتهم وجود من يمنعهم عن فعل هذا ، بالإضافة إلى أنها تدفع لهم للخضوع للحكام ، اهتماماتهم قصيرة الأمد تتضمن الاحتفاظ

بامتيازاتهم التى تعتمد بدورها على فرض القانون والنظام . هناك احتمال بأن يصبح الحكام مستبدين وبالتالى الرعايا سيكونون أفضل بدونهم فى حالة ما إذا كان لديهم حرية التخلص منهم إذا كان لديهم الطاقة والقوة التى تمكنهم من فعل هذا ، مثل هذا الفعل لا يأخذ بسهولة نظراً للاضطراب الذى سيسببه ، ومن الصحيح أيضاً أن عادة الطاعة المدنية تقود البشر أن يظلوا تحت حكم مستبد مدة أطول من المدة فى حالة خدمته لمصالحهم .

هناك طرق متنوعة لتنصيب حكومة ما ، مثل الخلافة أو الفتح أو بموجب قانون دستورى ، ما هو أكثر أهمية هى مدة سيطرة السلطة ، لا يهم كيف وصلت الحكومة ، ولكن استمرارها وحده سيكون كاف لاعتبارها شرعية ، هناك شعور بأن الحكومة تكون مستندة على موافقة المحكومين ولكن لا نأخذ من هذا أن نخترع عقداً اجتماعياً كتبرير أخلاقى من أجل الامتثال السياسى ، منذ أن اعتبرت قواعد العدالة ضرورية لسريان العقود وكافية أيضاً لتقدير الالتزام السياسى ، فإن العقد الأصلى ، كما قال هيوم ببساطة ، لا دور له فى هذه الحالة ، وحدها القصص الفلسفية التى تكتب فى السياسة هى التى حاولت تقديمه للناس وهماً كعقد .

الاقتراح المقدم هنا هو أننا أقررنا التزامنا بطاعة الحكومة عندما اخترنا البقاء كرعايا لها ، ولكن جزء من أى اعتراض آخر يتمثل فى الافتراض بأن لدينا بديل مهم والذى – غالباً لا يمثل الحالة .

وإلا ستكون مثل إجبار الشخص الذى تم تخديره وحمله إلى سفينة وأجبر على العمل فيها بأنه حر فى القفز فى البحر والموت ، كما قال هيوم فى مقالته (فى العقد الأصلى) .

لم يقم هيوم بأى محاولة لربط الأخلاق بالدين ، فلا شك فى هذا ، لأنه رأى أن الأخلاق لا يمكن أن تقام على أى شكل من أشكال السلطة ، بالرغم من أن الاعتقاد الدينى يمكن أن يعمل كوازع من خلال تأثيره على المشاعر ، فى أى حالة كان هيوم أقل اهتماماً بمنفعة العقيدة الدينية من حجته فى الحقيقة ، فنحن نرى أنه رفض المسيحية ، وبفحص مؤلفه (محاورات فى الدين الطبيعى) ، أستطيع إثبات أنه رفض الربوبية أيضاً . الثلاث المشتركون فى (المحاورات) هم دميان : الذى يؤمن بأن وجود الله يمكن البرهنة عليه قبلياً بالرغم من أننا عاجزون عن إدراك سر طبيعته ، وكلينثيس الذى يجادل بأنه لا يمكن أن يكون هناك دليل على وجود الله سوى ما يمكن استخلاصه من ملاحظتنا للعالم ، وبالتالى فإن إيمانه بوجود الله ينبنى على ما يسمى بالدليل من التصميم design وفيلون (الشاك) الذى يتفق مع كلينثيس فى أن البرهان من التصميم أكثر شئ يستحق التأمل والفحص ، ثم كرس نفسه ليبين مدى تهافت وضعف برهان كلينثيس ، إلا أن هذا لم يقده لأى جهر بالإلحاد ، حتى أنه ابتعد عنه نوعاً ما فى فكرة واحدة وهى تأكيده (أنه حينما يعالج العقلاء هذه الموضوعات ، فيستحيل أن يكون (وجود) إله موضع الأشكال بل (طبيعته) فحسب (D142) ،

ولكن فى ضوء نقاشه بشكل عام تظهر هذه الملحوظة بوصفها ملحوظة تهكمية Ironical ، فى مسار المحاورات تُرك الجانب الأكبر لآراء فيلون وهذا سبب كاف للدلالة على أنه كان يتحدث بلسان هيوم .

حجة دميان (أنه لا يمكن أن يوجد شئ دون سبب وهذه الفكرة التى تتعلق بالارتداد Regress اللامتناهى للأسباب تعتبر منافية للعقل ، فهذا الارتداد اللامتناهى ينتهى بالتوصل إلى السبب النهائى الموجود وجوداً ضرورياً – هذا هو الإله الذى يحمل فى ذاته سبب وجوده – ولا يمكن افتراض عدم وجوده بدون الوقوع فى تناقض صريح (D189) ، رد كلينثيس على هذه الحجة بأن وجود الله يفترض أنه أمر واقعى غير قابل للبرهنة عليه بأى حجة قبلية علاوة على أنه إذا أردنا التحدث عن موجود ضرورى ربما يكون الأفضل الحديث عن العالم ذاته ، دميان لم يحاول الرد على هذا الاعتراض الذى يتفق معه فيلون والجزء المتبقى له فى المحاورات محدد فى احتجاج دينى Pious عرضى ، ضد فشل كلينثيس فى توضيح الفرق بشكل كاف بين كيفيات وقدرات الموجودات البشرية وبين كيفيات وقدرات خالقهم المفترض ، بينما أعطى عديد من الأمثلة المقبولة من قِبل فيلون على التوافق بين الوسائل والغايات فى الطبيعة ، ويتلخص موقف كلينثيس فى عبارة قوية تتعلق بدليل التصميم ، يقول كلينثيس (انظر حول العالم ، تأمله برمته وتأمل كل جزء فيه تجده ليس إلا آله عظيمة مقسمة إلى عدد لامتناه من آلات أصغر تتيح بدورها تقسيمات أخرى إلى درجة تتخطى ما تستطيع

الحـواس والملكـات البشـرية أن تتبعـه وتفسـره – وهـذه الآلات المتنوعـة جميعـاً – بـل وأدق أجزائهـا أيضـاً – منظمـة فيمـا بينهـا بدقـة تفـتن مـن الإعجـاب كـل مـن قـيض لـه تأملـها ، إن التوافـق العجيـب بـين الوسـائل والغايات فى كل جوانب الطبيعة يشبه فى دقته ثمرات الابتداع والتدبير والفكر والحكمة والذكاء البشرى وإن كان يفوقها ، وعلى ذلك فما دامت المسببات (المعلولات) تتشابه فيما بينها ، فنحن نتأدى طبقاً لقواعد التمثيل analogy جميعاً إلى الاستدلال على أن الأسباب أيضاً تتشابه ، وأن صـانع الطبيعـة يشـبه إلى حـد مـا ذهـن البشـر ، وإن كـان مـزوداً بملكـات أوسـع تتناسـب مـع جـلال العمـل الـذى أنجـزه – بهـذه الحجـة البعدية – وبهذه الحجة وحدها – نبرهن فى عين الوقت على وجود الله وعلـى مشـابهته لعقـل الإنسـان وذكائـه (D143) . رد فيلـون علـى هـذه الحجة هو الفكرة الرئيسة لهذه المحاورات ويمكـن تلخيص اعتراضاته الرئيسة كالآتى :

1 ـ الحجج السببية مركوزة على انتظامات أثبتتها التجربة ، هذه ليست متوفرة فى هـذه الحالـة ، حيـث أننـا غير مطلعـين علـى عـدد كـبير مـن العوالم ، كلينثيس احتكم فقط إلى المماثلة التى تعد أضعف صورة فى الاستدلال .

2 ـ لـو تركنـا المماثلة المبنيـة علـى افتراض أن النتـائج المتماثلة تـدل علـى أسباب متماثلة ، فنحن ليس لدينا بينـه أكيـدة تجعلنـا نستنتج أن العـالم خُطط بواسطة موجود لامتناه سرمدى غير مـادى ، فنحن لا نمتلك خبرة

عن أى شئ من هذا النوع ، فالآلات شيدت عن طريق موجودات بشرية فانية لهم أجساد ينتمون لجنس أو لأخر ، يعملون بتعاون ، مطورون أداءهم وإنتاجهم من خلال المحاولة والخطأ ، يرتكبون أخطاء ثم يصححوها ويحسنون تصميماتهم ، وعليه ، بأى حق أجرد مخطط العالم من جسد وجنس ؟ ولماذا لا نخلص إلى أن الكون نتيجة مزج جهد عدة آلهة ؟ ولماذا يجب ألا يكون (أول محاولة فجة لإله طفل قد تخلى عنها بعد ذلك أو إنتاج إله هرم بلغ من العمر والخرف أرذلهما (D169) . ودرج على المخاطرات حتى مماته ؟ ، لماذا يجب ألا تكون عوالم عديدة قد لفقت ورقعت منذ الأزل قبل ظهور هذا النظام ? (D167)

3 ـ لو أن هذا يجعل المماثلة قوية إلى حد بعيد لتناسب أراء كلينثيس ، فإنها فى الحقيقة أيضاً تجعل آراءه ضعيفة جداً ، العالم يحتوى على كثير من الابتكارات البشرية والنماذج الطبيعية التى تشبه كل منها الأخرى ، على الأقل فى المجال التى تخدم أجزاؤها وظيفة ما ، حيث تكون أقل أو أكثر تأقلماً ، فهى لا تتبع كون العالم ككل أله أو أى شئ يشبهه ، أو أن هناك أى غرض يخدمه ، إن العالم ليس مشابهاً لإله ، ولكن من الممكن أن يكون أشبه بحيوان أو نبات (وليس القول بأن العالم نشأ بالإنبات من بذرة نثرها عالم آخر بأقل مواءمة واتساقاً مع التجربة من القول بأنه نشأ من عقل أو ابتداع إلهى (D178) .

4 ـ لو أننا تتبعنا عالم الأشياء فى المشابهة بعالم الأفكار (D162) ، فلماذا يجب أن نتوقف هناك لو أن الترتيب أو الانتظام فى الأفكار لا

يحتاج إلى تفسير إضافى ، لماذا يجب أن نجد الترتيب أو التنظيم – هذا – فى المادة .

5 ـ إن تجربتنا بالعالم تظهر أن المادة يمكن أن تحافظ على الاهتزاز الدائم Perpetual agitation التى يبدو جوهرياً لها ، وتُبقىِ كذلك على إطراد فى الصور التى تولدها (D183) ، لماذا يجب ألا نقبل فرضية أن المادة تنسب إلى قوة استطاعت تخليصها من الهيولى Chaos والاضطراب بوضعها فى نظام دقيق محدد ضمن أمور وأشياء أخرى (بغرض إظهار التدبير والتنظيم فى العالم (D184) –بلا شك أن هذه الفرضية تكون مفضلة على فرضية وجود كائن كامل لكونها غير قابلة للتحقق من صحتها وعديمة الجدوى من الناحية الواقعية .

6 ـ ليس فقط أن دليل العلل الغائية أو التصميم تعرض للانتقادات لكن حتى لو تم تركها فلن يتم إنجاّزُ أو تحقيق ، فالفرد الذى يقبله عادة يكون مؤهلاً لأن يتكهن (أن العالم قد نشأ فى وقت من شئ شبيه بالتدبير ولكنه لا يستطيع – بعد هذا الموقف – أن يتحقق من ملابسة واحدة ويترك بعد ذلك ، وقد أطلق العنان للمخيلة والفرض يضعان كل نقطة من نقط لاهوته) (D169) ، من الممكن أن النقطة السابقة كانت الأكثر أهمية فى نظر هيوم . لقد كان الهدف من فحصى لآرائه أن أُثبت أنه كان مشاركاً داعماً لكثير من الانتقادات التى وجهت العقيدة الدينية ، لكن قبل كل شئ أراد أن يصون الفلسفة مما وصف بأنه إطلاق العنان للمخيلة والفرض الذى يسقط فيهما اللاهوت – لقد

رأينا أنه لم يكن نموذجاً فى الاتساق ، ولكن على الأقل كان متسقاً فى مذهبه فى الدين الطبيعى وفى إصراره أن يُثبت كل فرع للعلم بالتجربة ، إن تأثيراته الرئيسة أكثر اتساعاً من أن تصاغ فى فقرة ، ولكن ربما يمكن أن تلخص نظرته العامة، وأرى أن الطريقة الأكثر تلاؤماً لتحقيق ذلك هو إيراد عبارته الشهيرة الذى تضمنها مؤلفه (بحث) (بأن الكتب التى لا تحتوى على براهين مجردة على الكم أو العدد أو استدلالات تجريبية تتعلق بأمور الواقع والوجود ، يجب أن يلقى بها فى النار مثل كتب الميتافيزيقا واللاهوت ، فهذه الكتب لا يمكن أن تتضمن شيئاً سوى السفطة والوهم (E165) .